التعليم من بُعد
دلالات الواقع .. وآفاق المستقبل

أ.د/ مصطفى عبد السميع محمد
أستاذ المناهج وطرق التدريس ومدير
المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية

ارتسمت السرعة على الفترة الراهنة التى يعايشها الكون مترامى الأرجاء- الذى أضحى صغيرا- فما يحدث فى أقصاه يعرف به أدناه فى ذات وقت الحدوث؛ وهذا بفضل التقدم النوعى فى العلم والتقانة والذى ألقى بظلاله الوثيرة على قطاعات التعليم قاطبة نظاميها وغير النظامى؛ حتى أضحى التداخل سمة اكتست بها أشكال التعليم وأنواعه .

ولا ريب أن ثورة المعلومات والاتصالات- مع ما فى التعبير من عوار- وما نجم عنه من اختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر؛ والذى أحدث أول تحول جذرى فى العصور الحديثة، فى طريقة حفظ المعرفة والتشارك فى ثمارها.

واليوم ها هى ذى الابتكارات التكنولوجية فى المعلوماتية تثوِّر مرة أخرى القدرة على التخزين والوصول والنقل والاستعمال للمعارف. فالتقدم المتسارع الذى تحقق – ومايزال- فى الإلكترونيات والاتصالات البعيدة والتكنولوجيات الساتليّة (Satellite Technologies) يتيح نقلا فائق القدرة على المعلومات والمعارف بتكلفة منخفضة فضلا عن سرعة الوصول والجودة فيها، مما أفرز طورا جديدا من الوفورات المعرفية وقدرة استيعابها؛ وكان للتعليم والتعلم النصيب الأوفى والأكبر فى ذلك .

ولا مناص من هذا التزاحم المعرفى إلا بالتطور الملائم فى صنوف التعليم والتعلم، فى أشكاله، وبرامجه، وأدواته، سائر منظوماته مما أدى إلى النمو والتوسع السريع الذى شهده ميدان التعليم من بعد بعدما كتسب الشعبية الكبيرة لتخطيه حواجز الزمان والمكان.

وما من شك فى أن التعليم من بعد -والذى تمتد جذوره إلى أكثر من ١٦٠ عاما كما يشير كل من

كومـــــــــان وواتـــــــــين (Kaufman&Watink 2010)– قد تطور على مدى هذه الفترة الكبيرة مـن تعلـم بالمراسـلة إلـى الراديـو التعليمى إلى البرامج التعليمية عن طريق التلفاز إلى التعلم عن طريق الفيـديو كـونفرانس إلـى الـتعلم بمسـاعدة الكمبيـوتر والوسـائط المتعـددة إلـى فـرص الـتعلم علـى الإنترنـت إلـى فـرص الـتعلم التفـاعلى إلى التعلم الخائلى... وفى تلك الفترة ذاتها كان التعليم بصورته التقليدية معتمدا على الصورة النمطية الخطية المتكررة؛ إلا فى بعض الأماكن من الدول المتقدمة والتى كانت تتعاون – على حذر- مع بعض أنماط التعليم من بعد.

أى نقـل التعلـيم مـن بعـد العملية التعليمية التعلُّمية إلى آفاق أرحب وأنماط أوسع تسبر الغور فى تحقيق الأهداف المنشودة والمرامى المأمولة. وبالنظر فى التعليم من بعد، وما ترتكز إليه فلسفته من مبادىء وهى كالتالى:

<u>المبـادىء التـى تتأسـس عليهـا فلسفةالتعليم من بعد:</u>

- إتاحـة الفـرص التعليميـة لكـل الراغبين والقادرين على ذلك دون حدود نهائية يقف عندها التعليم أو التعلم، وتذيل العقبات الزمانية والمكانيـة والعمليـة التـى تعـوق عملية التعلم.
- تحقيـق العدالـة الاجتماعيـة والمساواة فى حق التعليم لكل من سـمحت ظروفـه للحصـول علـى التعليم الملائم لإمكاناتـه والمنمى لقدراتـه والمحقـق لطموحاتـه وآماله.
- المرونـة فى التعامل بين أطراف العملية التعليمية لتخطى الحواجز والمشكلات التى قد تنشأ بفعل النظام او القائمين عليه.
- تنظـيم موضـوعات المـنهج وأسـاليب التقـويم حسـب قـدرات المتعلم وظروفه واحتياجاته.
- اسـتقلالية المـتعلم وحريتـه فـى اختيـار مـا يناسـبه مـن وسـائط وأنظمة لتوصيل المعلومة حسبما تقتضـيه ظروفـه ومـا تتطلبـه احتياجاتـه فـى المكـان والزمـان المناسب له.
- تصميم البرامج الدراسية بصورة تناسـب الاحتياجـات المختلفـة للمتعلم.
- تلبيـة حاجـات الجماعـات المسـتهدفة (Target Groups) وذلك بتقديم الخدمة التعليمية أو التدريبية المحقِّقة لما يرومونه.
- تحقيق الاندماج الاجتماعى للفئات المُبعدة أو المُستبعدة وذلك من خـلال البـرامج التـى تناسـب احتياجاتهم.
- الإسـهام فـى تحسـين الـنظم التقليديـة سـواء فـى مجـالات برامجهـا أو نوعيتها أو تقديم صيغ وأنماط جديدة تواكـب زيـادة الطلـب علـى التعلـيم وتحقيـق مبـدأ الإتاحـة، أو ملاحقـة

المستجدات والمستحدثات وذلك بتحقيق مبدأ النوعيَّة.

ولا ريب فأن تحقق هذه المبادىء يسير وفقومرام يقصدها التعليم من بعد وهى كالتالى:

أهداف التعليم من بعد:

- تقديم الخدمات التعليمية لمن فاتتهم فرص التعليم فى كافة مراحله، من خلال العمل على تجاوز حدود الزمان والمكان والعوامل الاقتصادية والاجتماعية التى حالت دون تحقيق التعلُّم لهذه الفئات عن طريق التعليم التقليدى فالغاية الأساسية أن يساعدهم التعليم من بعد فى بلوغ أهدافهم نحو تحقيق التعليم المنشود لديهم.
- توفير فرص التعليم المناسبة وفق احتياجات وظروف الأفراد حيث يتصف التعليم من بعد بالمرونة والقدرة على التكيف مع الظروف المختلفة للمتعلمين.
- تقديم البرامج التدريبية والتثقيفية المناسبة وذلك لتعدد أنماط وأشكال لاتعيم من بعد ووفرة وسائله وسهولة الوصول إليها.
- مضاعفة فرص التعليم للفئات المهمشة والتى كانت لا تجد التعليم الذى يلبى احتياجاتها كانساء والبيئات النائية التى تحول ظروفهم المكانية والاقتصادية من الانخراط فى التعليم التقليدى فتكون الفرصة سانحة للحصول على حق التعليم مما يدعم الاستقرار فى المجتمع بالحصول على فرصة بديلة للتعليم.
- مسايرة ومتابعة التطور المستمر فى المعرفة و التقانة وتجسير الفجوة الرقمية (bridging the digital gap) بين الأقطار المختلفة بما يحقق تكافؤ الفرص فى حياز المعرفة المناسبة.
- خفض مستوى الفقر عبر النمو الاقتصادى وذلك عن طريق توفير برامج التدريب والتأهيل الملائمة للتقدم السريع فى التقانة والعلوم المستحدثة ومواكبتها-بخاصة - للبلاد التى تعانى فقر الموارد وقلتها، فضلا عن انتهاج سبل اكتساب واستيعاب المعرفة، وبناء القدرات فى الوصول إلى المخزون المعرفى العالمى، وتكييفه بما يتناسب والمستويات المحلية.
- الإسهام فى محو أمية الكبير وتوفير البرامج التى تتناسب وقدراته وظروفه، كما تراعى حاجاته وترتقى إلى آماله وطموحاته.
- تلبية حاجات المجتمع من المؤهلين فى التخصصات المختلفة التى يفتقر إليها المجتمع.
- توفير فرص التعليم المستمر بتوسيع خياراته لكل من لم

يتمكنوا من مواصلة التعليم التقليدى.

- رفع المستوى الثقافى ونشر وسائل المعرفة بين سائر أرجاء المجتمع مما يدعم تحقيق التنمية المستدامة ومن ثم الرفاه.
- تمكين المتعلِّم من الحصول على الخدمة التعليمية المناسبة فى الوقت المناسب بالأسلوب المناسب للإمكانات والقدرات الخاصة بكل متعلم تحقيقا لمبدأ مراعاة الفروق الفرديّة للمتعلِّمين.
- تمكين التعلُّم والتدريب أثناء العمل بتوفير التعم والتدريب فى الموقع وذلك لتنمية الأفراد مهنيا أيًّا كان موقعهم.
- تقديم البرامج والأدوات والتنقنيات المستحدثة بصورة مستمرة وذلك ضمانا لمواكبة الجديد والمستحدث فى عصر التغيرات المتلاحقة وتلبية لاحتياجات سوق العمل المتجددة.

أنماط التعليم من بعد:

تعتمد نظم التعليم من بعد من خلال شبكات الحاسب الإلكترونية على مفهوم المنهج العام الذى يضم مجموعة من المناهج التعليمية العامة فى نظام يسمى" نموذج الولوج المفتوح " ويسمح هذا النظام بوضع المناهج الدراسية فى صورة إلكترونية بحيث يمكن للدارسين الوصول إليها والاختيار من بينها . وهناك نظام آخر يسمى "النموذج المركب" ويستخدم عند ضم بعض مجموعات الدارسين الصغيرة والخاصة بأقسام دراسية مختلفة فى منهج دراسى موحد جدوله الزمنى قد يستغرق وقتا عاما دراسيا.

وهذا المنهج يصعب على قسم واحد تطويره نتيجة قصور فى الخبرة أونقص فى الطاقات البشرية اللزمة إلى غير ذلك

وكان من نتيجة التدفقات الكمية على التعليم التقليدى فى الآ ونة الأخيرة والتى قادت الكثير من التقارير الدولية التحذير منه والدعوة إلى توفير البدائل التى تمكن الوفورات البشرية التى ترنو إلى الحصول على فرصة التعليم فى مراحله المختلفة سيما المرحلة الجامعية وما بعدها فضلا عن حاجات سوق العمالة إلى نوعيات معينة من المهارات المتوفرة فى الطاقات البشرية التى تفد إلى هذه سوق. كل ذلك وضع التعليم بمؤسساته التقليدية فى مازق. فكيف السبيل إلى تحقيق الإتاحة المطلوبة مع زيادة الطلب على الخدمة التعليمية،وفى نفس الوقت تحقيق الجودة التى يطلبها سوق العمل.

من هنا كان السعى إلى توفير البدائل التى تحقق ذلك والتى لا يمكن توافرها إلا فى أنظمة التعليم من بعد

والتى توفر أنماطا مختلفة من التعليم من اليسير أن تحقق الأهداف وتتلافى القصور فى التعليم التقليدى؛ فى البنية التحتية الخاصة به، والمخرجات التى يمكن الحصولعليها من خلاله.ويمكن إيجاز أنماط التعليم من بعد فيما ياتى:

1. التعليم بالمراسلة:

ويقوم هذا النمط من التعليم على استخدام المادة المطبوعة وإرسالها عن طريق البريد إلى الدارسين الذين يقومون بدراستها ذاتيا والتعليق على ما بها من نصوص ثم يقومون بإرسال تعليقاتهم وتساؤلاتهم بإعادة مرة أخرى وبنفس الوسيلة البريدية إلى مراكز التعليم بالمراسلة بما بها من معلمين ومشرفين للإجابة عن التساؤلات لتكمل بذلك دائرة الاتصال.

2. تقانة الوسائط المتعددة:

يعتمد هذا النمط من التعليم من بعد فى توصيل المعلومات للدارسين على استخدام النص المكتوب والتسجيلات السمعية والبصرية بمساعدة الحاسوب عن طريق الأقراص المرنة أو المدمجة أو الهاتف أوالبث الإذاعى والتليفزيونى.

3. التعلم المتفاعل من بعد:

يقوم هذا النمط على مجمل التفاعل بين المتعلم والمعلم من بعد من خلال المؤتمرات المرئية، والاتصالات البيانية المرئية والمسموعة، وقنولت التعليم التى تبثها الأقمار الصناعية.

4. التعلُّم المرن:

وهذ النمط من التعليم من بعد يجمع بين الوسائط المتعددة التفاعلية، التى تقوم بتخزين المعلومات على شبكة الاتصالات العالمية، حتى يكون الدارسون قادرين على استقبالها فى اى وقت يشاءون. وذلك من خلال الأقراص المدمجة التفاعلية،، وشبكة الاتصالات والفصل الافتراضى (virtua class) والمكتبات والكتب الآلكترونية (e-books&e-library)، وقواعد البيانات لدى الطالب، والمناقشات المباشرة، ومقررات تحت الطلب، وغير ذلك كثير.

<u>المواد المطبوعة:</u>

تعتبر هذه المواد العنصر الأساسى لبرامج التعليم من بعد، والأساس الذى ارتكزت إليه كل نظم إمداد أو تقديم البرامج التعليمية؛ وتتوافر أشكال متنوعة من المواد المطبوعة؛ مثل الكتب الدراسية، مرشدات الدراسة، مخططات المقرر، دراسات الحالة، التمارين والتدريبات التقويمية،الاختبارات ...إلخ.

5. التعليم الافتراضى التخيلى:

ويقوم هذا النمط من التعليم على استخدام شبكة الإنترنت، حيث يستخدم "الويب" كوسيط لنقل المادة العلمية، وأيضا لتحقيق الاتصال بين الدارس والمدرس. وبرغم حداثة هذا النمط التعليمى إلا

أنه فى تطور وازدياد حتى يكاد يطلق على هذه الصيغة من التعليم ؛ التعليم من بعد . وقد يكون الاتصال متزامن(Synchronous) أو غير متزامن (Asynchronous) أن يكون هو التعليم الافتراضى .

6. التعليم الشبكى:

يقوم هذا النمط من التعليم من بعد، على الاستفادة من المؤسسات التعليمية مترامية الأطراف فى سائر أنحاء المعمورة، فتقوم على ربط هذه المؤسسات فى شكل شبكى بحيث يتم التعلم بصورة تتجاوز حدود المكان والزمان، كما يعتمد هذا النمط فى التعليم على نموذجين؛أولهما: النموذج التشبيكى للمؤسسات والأفراد على المستوى الدولى بحيث تقدم الخدمة التعليمية فى صورة واحدة معتمدة على معايير محددة لا ينبغى الحيدة عنها فى أى مكان فى العالم بحيث تكون المخرجات التعليمية واحدة فى فى أى مكان حصل الخريج على هذه الدرجة أو الشهادة، وهذا يظهر جليا فى الاختبارات الدولية للغات كالتويفل(TOEFL)، أو شهادة قيادة الحاسوب(ICDL). ثانيهما: نموذج مبتكر للدراسة المستقلة، والتي تعطيالمتعلمين حرية التحكم فى البرامج التى يرغبون فى الانضمام إليها، وذلك من خلال استخدام التكنولوجيا المتطورة. وهذا يتيح نوعا مختلفا من التعليم الذتم تغذيته مركزيا بحيث يتعامل الطالب معه حيثما كان،أو في مراكز التعليم من بعد الموزعة فى جميع أنحاء المعمورة ، كما يسمح هذا النموذج بتوفير المدربين المعتمدينفي أي مكان كان فيه الطلاب،كما يتم إتاحةالبرامج و المقررات بحيث تكون فى متناول الطلاب حيثما وجدوا دون التقيد بزمان أومكان.

متطلبات التعليم من بعد :

لكل نمط من أنماط التعليم من بعد، وفى الواقع لكل هدف تعليمي محدد وسائط تقنية أكثر مناسبة من غيرها، فالراديو يساعد على شحذ الخيال، والتلفزيون فعال في التعامل مع الأحداث المركبة، والحواسيب تناسب اكتساب المهارات الناجمة عن التكرار والممارسة والتفاعل (وبالمناسبة، تدل البحوث الحديثة في تكوّن الذاكرة طويلة الأجل على الدور الجوهري لتكرار الخبرة). ولذلك فإن تعدد الوسائط التقنية، في سياق التعليم متعدد القنوات، يوفر مجالا أرحب لإثراء العملية التعليمية. كذلك يتكيف استخدام الوسائط التقنية بظروف المجتمع المحدد الذي تقوم فيه، سواء من حيث التوافر، أو النوعية أو كفاءة الاستغلال.

وتجدر الإشارة هنا إلى ملاحظتين رئيستين:

الأولى؛ أن استعمال أشكال التعليم من بعد المختلفة والتركيز النسبي على أي منها، في أي مجتمع، رهن بالتشكيلة التقنية القائمة فيه وبمقوماتها المجتمعية،

بما في ذلك البنية الأساسية والتنظيمية.

والثانية؛ أن استخدام الأشكال الأكثر فعالية من التعليم من بعد، تلك التفاعلية باستخدام الحواسيب والشبكات، والمؤثرة على نوعية التعليم، حديث نسبيا حتى في المجتمعات المتقدمة. وأن هذه الأشكال هي في الوقت نفسه الأكثر كثافة تقنيا، والأعلى تكلفة، والأكثر حاجة لبنى تحتية مكلفة هي الأخرى. والبلدان النامية مستقبلة متأخرة لهذه الإمكانات، ومن ثم لن يمكن، وفق مجريات الأمور الراهنة، التوصل لها إلا لأقلية، تتضاءل في المناطق الأفقر.

ويقل توافر وسائل الاتصال الحديثة في البلدان النامية مع حداثة وسيلة الاتصال، وارتفاع ثمنها (التليفون والفاكس والحواسيب والإنترنت) ومدى حاجتها لبنية أساسية مكلفة (التليفون والفاكس والإنترنت). وبعبارة أخرى، يقل توافر وسائل الاتصال كلما زادت فعاليتها في التعليم من بعد ومن باب أولى، في التعلم الذاتي من بعد.

كذلك يتعين ملاحظة أن المهم ليس مجرد التوفر، ولكن مدى إمكان الاعتماد عليها- فمازال البريد العادي غير مضمون وصوله، ناهيك عن وصوله بسرعة، لعموم القطر، وتقلل الأعطال المتكررة من الاستفادة من وسائل الاتصال الباقية، في بلدان نامية.

والنوعية مسألة أعقد. وهنا تثور أمور مثل: هل تصل خطوط الهاتف ذات "كابلات" نحاسية تقليدية أو أليياف ضوئية، وأي أساليب نقل المعلومات تطبق في الشبكات؟ حيث تحدد هذه الفروق طاقة نقل المعلومات ومدى سرعة نقلها عبر الشبكات، ومن ثم درجة غنى الرسائل التعليمية التي يمكن نقلها.

وبناء على ما سبق، يظهر أن الراديو- والصوتيات بوجه عام- يليها التلفزيون، هي الوسائط الأكثر مناسبة للاستعمال الواسع، خاصة فى ميدان مقاومة الاستبعاد من التعليم، في البلدان النامية حاليا.

فتتميز هذه التقنيات، من حيث المبدأ، بكونها واسعة الانتشار، ورخيصة نسبيا، ولا تحتاج بنية تحتية مكلفة. والواقع أن انتشار البث الإذاعي في البلدان النامية متسع جدا، لأسباب غير تعليمية، وفى الأغلب مترد نوعا، بما يؤسس حاجة للاستخدام الفعال لهذه الوسائط في التعليم والتنوير.

ولكن ينتاب الإذاعة التعليمية، المسموعة والمرئية، وجه قصور تعليمي أساسي هو غياب التفاعل المزدوج بين المعلم والمتعلم. ومع ذلك، يزيد من الأهمية التي يجب أن تولى لاستعمال الراديو وجود تقييمات حسنة، حتى في تعليم أوليات الرياضيات والعلوم، لما يسمى "تعليم الراديو التفاعلي"

الذي يتضمن إشراك المتعلمين عن بعد من خلال طلب قيامهم بنشاطات، فردية أو جمعية، أثناء البث الإذاعي، بدلا من مجرد الإنصات السلبي. ولا يوجد من حيث المبدأ ما يمنع من أن تمتد هذه الطريقة للبث التعليمي التلفزيوني. ولكن ذلك النوع من التواصل المنقوص لا يقوم بديلا فعالا، في كلتا الحالتين، للتفاعل الآني.

وفوق ذلك، فإن المزايا العامة التي ذكرنا أعلاه للإذاعة من حيث المبدأ لم تمنع أن تعانى برامج البث الإذاعي التعليمي في البلدان النامية، التي اهتمت بتقييمها، من أوجه نقص عديدة منها نقص التمويل، وقلة المعدات ووقت الإذاعة المتاح، وضعف تدريب العاملين، وقلة اهتمام المسئولين- الذين يفضلون البرامج المدرة للربح- وحتى المعلمين.

غير أن التوصية بالاهتمام بالإذاعة لا تعنى، على الإطلاق، إهمال التقنيات الأكثر تطورا، خاصة وهى تحمل الأمل الأكبر في مواجهة مشكلة تردى نوعية التعليم التقليدي في البلدان النامية.

<u>الحاجه إلى التعليم من بعد:</u>

بداية، يمكن، بل مطلوب بشدة، أن يساهم التعليم من بعد فى حل مشكلات الاستبعاد من التعليم التقليدى، سواء فيما يتصل بالتعليم قبل المدرسى بوجه عام، أو استبعاد البنات والنساء والمناطق النائية والفئات الفقيرة من مراحل التعليم الأعلى.

ومن الممكن، بل صار ملحا، أن تستغل أساليب التعليم من بعد فى مكافحة تردى النوعية فى التعليم التقليدى من خلال التعليم متعدد القنوات. ومن المميزات المعروفة لبعض أشكال التعليم من بعد هو انخفاض تكلفتها، الأمر الذى يساعد على استخدامها فى البلدان الأفقر.

ويمكن أن تساعد أساليب التعليم من بعد فى التغلب على ندرة المعلمين، خاصة فى المناطق النائية والأفقر فيها، وتوفر أداة فعالة للنهوض بمستوى المعلمين باستمرار، وتساهم فى توسيع نطاق الاستفادة من المعلمين الموهوبين، سواء فى تعليم النشء أو فى تدريب عامة المعلمين.

غير أن لتبنى التعليم من بعد، بكفاءة، ميزتين إضافيتين، على الصعيد الاجتماعى وفى المعترك الدولى.

على الصعيد الاجتماعى، سيساعد تنامى "التعلم الذاتى عن بعد" بين أبناء القادرين على تفاقم الانتقائية المتزايدة للفئات الاجتماعية الأغنى فى التعليم الأرقى نوعية، بحيث يصبح التعليم أداة لتكريس الاستقطاب الاجتماعى، بدلا من وظيفته المرجوة فى التقليل من الفوارق الاجتماعية.

وترتب هذه السمة أهمية خاصة لتوفير إمكان الاستفادة من

ثمرات التقانات الحديثة لأبناء الفئات الاجتماعية الأضعف. وقد صار لزاما، خاصة مع انتشار الفقر، أن توفر نظم التعليم العربية العامة الأشكال الأحدث من تقانات التعلم الذاتى عن بعد لأبناء غير القادرين.

وفى المعترك الدولى، تنطوى عملية العولمة على أنماط، مباشرة وأخرى مقنّعة، من التعليم من بعد، من خارج نسق التعليم والتنشئة الوطنى، قوى ويزداد قوة باطراد، ومحمّل بلغات وبثقافات غريبة- بأوسع معنى- بما قد يحمل أخطارا على رسالة التعليم. ومن ثم بات ضروريا دخول معترك التعليم من بعد باعتباره مجالا حيويا للتعلم على صعيد العالم لم يعد ممكنا تجاهل وجوده.

وباعتبارها تبدأ من الصفر تقريبا، تنهض فرصة لأن تُصمم نظم التعليم من بعد، منذ البداية، لتتلافى نقائص التعليم التقليدى، خاصة تلك التى ينعقد الأمل على التعليم من بعد فى المساهمة فى مكافحتها وعلى رأسها الاستبعاد- بمختلف أنواعه التى ذكرنا أعلاه- وتردى النوعية، والفصام مع مقتضيات التنمية والتقدم.

شروط نجاح التعليم من بعد والتعليم متعدد القنوات:

هناك قدر من الانبهار بالتعليم من بعد، وباستخدام التقنيات الأحدث، وكأنها حلول سحرية، دون تمحيص. هذا على حين يواجه التعليم من بعد، والتعليم متعدد القنوات بوجه خاص، مشكلات عديدة، تزداد حدة في البلدان النامية. والخشية أن تؤدى حالة الانبهار هذه إلى إحباط ضخم، في ميدان التعليم. إذ ليس التعليم من بعد حلا سحريا، بل أحد عناصر منظومة تعليم متكاملة، وهكذا يجب أن ينظر، وأن نقدم عليه باعتباره تحديا كبيرا، إن أردنا النجاح في هذا الميدان الحديث نسبيا.

فعلى حين يقدم بعض الباحثين، في الغرب، قرائن على أن بعض برامج التعليم من بعد يمكن أن تنتج نوعية أعلى من التعليم، خاصة العالي، بسبب ضرورة تحمل المتعلم للمسؤولية، والاشتراك الأكثر فعالية للمتعلمين في العملية التعليمية، وغياب الحواجز النفسانية للتعبير في المجموع، وغيره من المبررات، لا يوجد دليل علمي قاطع على أفضلية التعليم من بعد على التعليم التقليدي في منظور النوعية.

وعلى العكس، يتوافر دليل قوى على أن برامج التعليم من بعد تعانى معدلات انقطاع أعلى من التعليم التقليدي. وهذا أمر متوقع في ضوء ظروف غالبية الملتحقين بالتعليم من بعد، والتي أدت لحرمانهم من التعليم التقليدي بداية.

والواقع أن التعليم من بعد يمكن أن يقع في نفس مشاكل التحصيل في التعليم التقليدي، خاصة ثلاثية "التلقين-الاستظهار-الإرجاع"

اللعينة. بل يمكن أن يعانى منها أكثر من التعليم التقليدي بسبب توسط المعدات الجامدة بين المعلم والمتعلم. ولذلك يجب أن تكوّن مقاومة التسرب وضمان النوعية الراقية محاور أساسية في التخطيط للتعليم عن بعد.

والمعروف أن آثار التعليم من بعد أكثر تشتتا من التعليم التقليدي، ومن ثم أصعب في التقييم. وتزداد هذه الصعوبة فى البلدان التى تضعف فيها فكرة التقييم، وتقل مصداقية جهود التقييم.

وتطوير المواد التعليمية، المشوقة والفعالة، في التعليم من بعد أمر صعب ومركب- يجب أن يتم من خلال فرق متكاملة تضم تربويين وخبراء، فى الموضوعات وفى التقنيات ووسائط الاتصال المستخدمة، وفنانين وغيرهم. ويجب أن يقوم إنتاج المواد التعليمية على تبنى نموذج "البحث-التطوير-التقييم-المراجعة" باستمرار.وهو أيضا مكلف. في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، يقدر أن تكلفة إنتاج الدقيقة الواحدة من برامج التلفزيون التعليمية الجيدة تبلغ حول ثلاثة آلاف دولار. ولذلك كثير ما يتم التأكيد على أن الاستفادة من التعليم من بعد يجب أن تكون من الاتساع والعمق بحيث تتحقق معادلة معقولة بين التكلفة والعائد.

وتمثل ندرة المواد التعليمية الصالحة للتعليم عن بعد باللغة العربية مشكلة خاصة يتعين العمل على تلافيها تمهيدا للدخول القوى فى هذا المضمار.

المنظومة البشرية: تشترك فئات متنوعة، و"جديدة"، من البشر في التعليم من بعد، وتزداد- عددا وتنوعا- في التعليم متعدد القنوات. فبدلا من مجرد "ثنائي" المدرس والطالب يقوم التعليم من بعد- في الحد الأدنى- على "ثالوث": معلم عن بعد- أو معلم في "الأستوديو"؛ متعلم عن بعد؛ ميسر الموقع (الذي يتعامل فيه المتعلم عن بعد) بجوانب العملية التعليمية عن بعد، خاصة من خلال وسائل الاتصال المتقدمة غير المتاحة للمتعلم الفرد.

ويتعين أن تتفاعل الأطراف الثلاثة كفريق كفء مع تغير دور المعلم والمتعلم عن المتعارف عليه في التعليم التقليدي. فالمعلم عن بعد- الكفء- ليس ملقنا لكم معين من المعلومات، ولكن ميسرا للتعلم من خلال الاكتشاف، وعبر التواصل مطرد الترقي.

لكن هناك- غير هؤلاء الثلاثة- آخرين كثر تضمهم فرق تصميم وإنتاج المادة التعليمية، كما أشرنا، والفنيين والإداريين في مواقع التعليم من بعد وفى الإدارة التعليمية على مستوياتها المختلفة، ومقدمو خدمات الاتصال المختلفة، وغيرهم.

وهناك خطر أن يقع التعليم من بعد في أيدي "التقانيين"- نتيجة لقلة معرفة التربويين بالتقنيات

الحديثة، أو افتتانهم الشديد بها. وينطوي ذلك على الوقوع في التركيز الزائد على التقنيات والمعدات، عوضا عن الهدف الأصيل وهو الاحتياجات التعليمية للمتعلمين عن بعد. إن التعرف على هذه الاحتياجات، وأفضل السبل للوفاء بها، يجب أن يسبق حتى اختيار التقنيات وتحديد التوظيف الأفضل لها لتحقيق الغاية التعليمية. ويستلزم درأ ذلك الخطر، على وجه الخصوص، أن يعاد توجيه برامج تكوين التربويين، الجامعية وأثناء الخدمة، لتتضمن مكونا قويا في التعليم من بعد، نظريا وعمليا.

البنية الأساسية والمعدات والبرمجيات: واضح أن تكلفة التعليم من بعد، خاصة التفاعلي منه، مرتفعة لدرجة يمكن أن تكون مانعة للانتشار، ولو المحدود. إذ حتى في الولايات المتحدة الأمريكية تحول القيود المالية أحيانا دون توافر المعدات والبرمجيات ومداخل شبكات الاتصال اللازمة لهذا النوع من التعليم من بعد. ويزيد من التكلفة على المدى الطويل، التقادم السريع لكثرة المعدات والبرمجيات المستعملة في التعليم من بعد- التفاعلي.

وخلاف التكلفة، هناك شروط عديدة للاستخدام الفعال للمعدات الحديثة من أهمها التدريب الفعال والصيانة المستمرة. ويترتب على قلة توافر هذه الشروط تضاؤل استخدام المعدات الحديثة إلى جانب طفيف من إمكاناتها. وقد يصل الأمر لبوار المعدات، وقلة الاستفادة من البرمجيات، تحت ظروف البيروقراطية والإهمال المتفشيين في الإدارة الحكومية في البلدان العربية.

وعلى السياق التنظيمي والإداري يتوقف العائد على نظم التعليم من بعد والتعليم متعدد القنوات. إذ أن التعليم من بعد نسق أعقد من التعليم التقليدي، ومن ثم يحتاج لأنظمة أكفأ وإدارة أرقى. وتزداد المشكلات التنظيمية والإدارية تعقيدا في إدارة التعليم متعدد القنوات. والمعروف أن الإدارة المدرسية التقليدية تميل للمركزية والجمود، بينما يكمن نجاح التعليم من بعد في اللامركزية والمرونة اللازمين لتكامل عديد من المكونات المتباينة في نسق متكامل يسعى لبلوغ غاية مشتركة.

وعند تبنى التعليم من بعد يصبح مطلوبا بوجه خاص مرونة القيادات التعليمية- وهى في العادة أكثر جمودا وتمسكا بالسلطة، واغترابا عن التعليم من بعد ومحتواه التقانى، من الأجيال الأصغر في المؤسسة التعليمية. ويستلزم ذلك الاهتمام بالتوعية المكثفة بمضمون التعليم من بعد، والتدريب على إدارة مكوناته العديدة، والتنسيق بينها، خاصة في مستويات الإدارة التعليمية المختلفة قبل بدء البرامج.

وتتضمن الأمور التي تحتاج عناية خاصة في مضمار التنظيم والإدارة، ومتطلبات مختلفة عن التعليم التقليدي، مسائل "الاعتراف" بالمؤسسات العاملة في ميدان التعليم من بعد، وتقييم المتعلمين، وتقييم المعلمين، والترخيص للمعلمين وتجديده، وتدريبهم،ويمثل السياق الاجتماعي للتعليم عن بعد محددا جوهريا لمدى نجاحه. وهنا تثور عدة مشكلات تطلب اعترافا من ناحية، ومواجهة جادة من ناحية أخرى.

بداية يعانى التعليم من بعد من انخفاض المكانة الاجتماعية، حيث يُعد تعليما "من الدرجة الثانية"، يرتاده فقط من لم يقدر، أكاديميا أو ماليا، على "امتلاك" أشكال التعليم التقليدي. وينبغي التخطيط لمحاربة هذه السمعة السيئة. وجلي أن السلاح الأمضى في هذه الحرب هو ضمان النوعية المتميزة في برامج التعليم من بعد، خاصة تلك البديلة للتعليم التقليدي. والسبيل الأساسي لذلك هو تطبيق نظم الاعتراف الأكاديمي ببرامج التعليم من بعد بصرامة. وتبين الخبرة العملية أن أحد أهم سبل احترام التعليم من بعد هو اعتراف مؤسسات التعليم التقليدي المتميزة بخريجى برامجه بين طلبتها.

والخلاصة أن الاستغلال الناجع للتعليم عن بعد، والتعليم متعدد القنوات- خاصة باستعمال تقنيات التفاعل الإلكترونية- يقتضى ثورة حقيقية في التعليم ككل. فكل المكونات التي سبق الإشارة إليها يتعين أن يتكامل في منظومة متناغمة داخليا، وتلتئم- في تناغم أيضا- مع نسق التعليم التقليدي القائم، الأمر الذي يوجب ضرورة التجريب واكتساب الخبرة التراكمية من خلال التقييم الرصين والتطوير المستمر.

التحديات التى تواجه مستقبل التعليم من بعد:

تواجه التعليم من جملة من التحديات التى تؤثر على مساره مستقبلا وقد أجرى سكوت هاويل بحثا مسح فيه ما يربو على ١٤٠ دراسة فى مجال التعليم من بعد ظهرت مؤخرا، وذلك لتعرف التحديات التى تواجه التعليم من بعد، وبالنظر فى دراسة هاويل نجد أنها توصلت إلى ثنتى وثلاثين تحديا يواجه مستقبل التعليم من بعد، وتأتى هذه التحديات فى ست مجالات رئيسة نوجزها فيما يأتى:

أولا؛ التحديات التى تواجه الطلاب المستفيدين :

توصل هاويل من خلال الدر اسات إلى خمسة تحديات تواجه الطلاب المستفيدين من التعليم من بعد وهى :

1. عدم استطاعة أنظمة التعليم التقليدية من استيعاب الأعداد المتزايدة من طالبى الفرص التعليمية لذا يتوجب اللجوء إلى

أنظمة التعليم من بعد لمواجهة هذا التزايد فى الطلب على التعليم

2. حاجة الطلاب إلى برامج ذات نوعية معينة يتطلبها سوق العمل مما لا تستطيع أنظمة التعليم التقليدية من توفير البرامج المختلفة والتطورة بشكل سريع ومتلاحق.
3. الملامح الجديدة التى يتسم بها المتعلم فى عصر التدفق المعلوماتى، و الاستخدام الكثيف لشبكة المعلومات العالمية.
4. النسب المتزايدة من الفئات والمهمشة والتى لا تنال نصيبها من التعليم كالإناث والأقليات؛مما يدعو إلى توفير الفرص البديلة للتعليم.
5. عدم استطاعة أنظمة التعليم التقليدية من توفير هيئات التدريس التى تستطيع مجابهة الأعداد المتدفقة من الراغبين فى التعليم فضلا عن كثرة المساقات والبرامج، مما يدعو إلى توفير البدائل التكنولوجية التى تفى بهذه الأغراض.

ثانيا؛ التحديات التى تواجه أعضاء هيئات التدريس:

جاءت التحديات التى تجابه عضو هيئة التدريس كما عبرت عنه الدراسات؛ فى سبعة اتجاهات وهى كالتالى:

1. تحول وتغير أدوار ومهام عضو هيئة التدريس؛ فما كان يقوم به عضو هيئة التدريس سابقا- ومع الطفرة السريعة فى التطور المعرفى والاستخدام الكثيف للتقانة- أدى ذلك إلى إضافة مهام وتبعات جديدة عليه.
2. الحاجة المتزايدة إلى برامج التنمية المهنية لهيئات التدريس لملاحقة المستجدات فى الميدان.
3. يجب مراجعة تراخيص مزاولة المهنة لما يشهده الميدان من نقلات نوعية فى المهام التى يجب على عضو هيئة التدريس أن يقوم به.
4. مقاومة بعض الفئات من القائمين بالعملية التعليمية للتكنولوجيا الحديثة؛ وعدم التعامل وفق مقتضيات العصر المعرفى.
5. ارتباطا بالتحدى السابق بينت نتائج دراسة ماكجرو استجابة وتفاعل مجموعات من هيئات التدريس لإدخال التكنولوجيا فى العملية التعليمية والاستفادة منها فى عملية التدريس.
6. توقع المعلمين فى الإحساس بالعزلة من جراء التعلم غير المواجه أو التعيم من بعد لذا تأتى المخاوف من استخدامه كبديل للتعليم التقليدى.
7. ازدياد مطالبات أعضاء الهيئات التدريسية التقليديون بتخفيض الواجبات والمهم، مقارنة بالهيئات العاملة فى التعليم من

بعد، وذلك لعدم تناسب حجم العمل مع ما يتقاضونه من رواتب مقابل ذلك.

ثالثا؛ التحديات الأكاديمية:

جاءت التحديات الأكاديمية كما عبرت عنه الدراسات؛ فى تسعة اتجاهات وهى كالتالى:

1. التزايد السريع والمتنامى فى المعرفة والمعلومات.
2. ازدياد المؤسسات والبرامج هادفة الربح مقابل تناقص وانكماش المؤسسات التقليدية العامة، أو غير هادفة الربح.
3. التحولات فى الهياكل المؤسسية والنزوع إلى المؤسسات لا مركزية الإدارة .
4. ازدياد استراتيجيات التعلم الذاتى والموجه نحو المتعلم على حساب التعلم الجمعى واستراتيجيات التعلم الخطية التقليدية.
5. التركيز على مبدأ المساءلة والرقابة للمؤسسات التعليمية.
6. التركيز على تحقيق مبادئ الجودة التعليمية.
7. سهولة تلبية الاحتياجات التعليميةفى المراحل المختلفة للمتعلمين.
8. ازدياد برامج التعلم ذات الطبيعة الدولية وزيادة المؤسسات المقدمة للبرامج الدولية .
9. التوجه إلى توحيد معايير التعلم على المستوى العالمى لتوحيد سوق العمل، والتى تتطلب معايير دولية .

رابعا؛ التحديات التقنية:

جاءت التحديات التى تعبر عن الجانب التقانى كما عبرت عنه الدراسات؛ فى ثلاثة اتجاهات وهى كالتالى:

1. التنوع الكبير فى الأجهزة الإلكترونية والتحديث السريع لكفاءتها.
2. النمو الكبير فى استخدام الإنترنت.
3. التمكن من استخدام التكنولوجيا أصبح متطلبا أساسيا من متطلبات التخرج.

خامسا؛ التحديات الاقتصادية:

جاءت التحديات التى تعبرعن الجوانب الاقتصاديةكما أشارت إليه الدراسات؛ فى ثلاثة اتجاهات وهى كالتالى:

1. حالة الركود الاقتصادى العالمى، ووالاتجاه إلى تقليل فى الموارد المخصصة للتعليم التقليدى.
2. التمويل كتحد يواجه استخدام التقانة العالية فى التعليم، فى الوقت الذى يطلق على الاقتصاد المعرفى أنه اقتصاد الوفرة؛ ولكن فى غير الموارد المالية.
3. التعلم مدى الحياة أصبح ميزة اقتصادية تنافسية.

سادسا التحديات التعليم من بعد كنموذج:

جاءت التحديات التى تعبرعن التعليم من بعد كنموذج كما عبرت

عنه الدراسات؛ فى خمسة اتجاهات وهى كالتالى:

1. الحاجة والطلب المتزايدعلىالبرامج والدرجات الجامعية المتاحة من خلال أنظمة التعليم من بعد.
2. هيمنة الإنترنت على أنماط التعليم من بعد.
3. تلاشى المسافات بين التعيم المحلى والتعليم الدولى.
4. الحاجة الماسة لأنظمة إدارية كفؤة لمجابهة الطلب المتزايد على التعليم من بعد.
5. الطلب المتزايد على استراتيجيات التعليم والتعلم التى تستفيد من الإمكانات التكنولوجية المتطورة الاستفادةالمثلى.

وخلاصة القول أن التحديات الجسام التى تواجهها أنماط التعيم من بعد لا شك فى أنها ستؤثر على مستقبل التعليم من بعد فقدرة البنى التحتية لمنظومة التعليم التقليدية لا تستطيع التواؤم مع التزايد المضطرد فى الأعداد اتى تسعى لأخذ حقها فى التعليم؛ فضلا عن ملامح المتعلم الذى تعود على استخدام التكنولوجيا بل أصبحت جزء لا يتجزأ من تكوينه الفكرى والثقافى حتى فى الترفيه والمتعة، كما تدفع الحاجة إلى تكثيف البرامج التدريبية المبنية على الاحتياجات سواء فى مجال المهن المختلفة أو التى تتطلبها سوق العمل المتغيرة، وقضايا الشفافية والمساءلة والسعى الدءوب نحو النوعية، والتكيف مع مطالب المتعلمين واحتياجاتهم النوعية، إلىالحاجة لأنظمة إدارية فعالة تقود الطفرة النوعية فى استخدام التكنولوجيا فى العملية التعليمية،إلى الحاجة الماسة إلى مواكبة استراتيجيات التعليم والتعلم للاستخدام الأمل للتكنولوجيا.

كل ما سبق يجعل التعليم من بعد فى مفترق طرق بحيث يتوجب على القائمين على العملية التعليمية- التى أضحت الآن عولمية تتهاوى فيها الحدود الزمانية والمكانية – أن تتغير النظرة للتعليم من بعد على أنه تعليم غير نظام فالنظرة المستقبلية لإليه ينبغى أن تكون برؤية استراتيجية تعمل على اعتباره طوق النجاة فى تحقيق التنمية المجتمعية المستدامة.